ليالي الداخلية

رواية تتناول حياة الكاتب ورفاقه من الطلبة في الداخلية """""دار الطالب """"بفجيج شرق المملكة المغربية في السبعينيات من القرن الماضي

تصوير للاحداث و نقل للصور المثيرة داخل فضاء الدار وفي المدينة منذ وصول الكاتب الى الداخلية 1974 حتى خروجه منها 1978

في حضرة الصباح الذي تلا اعلان المسيرة الخضراء ،غادر تيمح الداخلية يطوي الطريق مع صحابه الى الثانوية .في الطريق اليها ،وهو يمر بمبنى السوق الجماعي ،أحس بشعور غريب .رأى مشهدا غريبا لم تألفه السوق قبل ذلك اليوم. وجد الناس قد تجمعوا داخل المبنى .يلبون نداء الملك ونداء الوطن . يعقدون العزم على أمر قد حل بتلك الديار .كان تيمح يراقب ذلك الجمع دون أن يفهم سبب ذلك التجمع الهائل. سعى الى الثانوية مسرعا حتى لا يفوته الدرس وفي قرارة نفسه رغبة في معرفة ما يجري .دخل الفصل وصور الأمس لم تفارق عقله .أحيانا كانت تحجب عنه ما كان يقدمه الأستاذ من شروح.مرت الحصص الدراسية كما مرت سابقاتها في الأيام الخوالي .دق جرس الخروج من جديد .وهو عائد الى الدار ،دار الطالب زوالا ، ألفى أرضية السوق تعج بالناس .نظموا شبابا وشيبا ،نساء ورجالا في صفوف عديدة متراصة البنيان .تلفح شمس الخريف رؤوسهم .يقودهم ذهابا وإيابا في استعراض عسكري رنان رجل طويل القامة ،لا تكف

يديه عن الحركة الى الأمام والى الخلف.
يخرج من فمه صوت قوي لا حروف فيه
قد انبعث من أعماق جوفه
""""هَفْ،هَفْ،هف"".كانت الجموع على
الصفوف تقلده تقليدا أعمى حركة
وصوتا.لا تحيد عن حركة يأتيها ،ولا عن
صوت يصدر من دواخله .ولا عن التفاتة
برأسه يلتفتها. ظهروا هنالك كالجنود
يتدربون ؛كأنهم يستعدون لحرب تلوح في
الأفق .امتلأ جدار المبنى بالصغار ،وحتى
من الكبار. كلهم جاؤوا حبا في الاستمتاع
بذلك المشهد الفتان ،وبتلك الصور الرائعة
التي ناذرا ما يأتي بها الزمان .تأخر الوقت
كثيرا عن وجبة الغذاء في دار الطالب
،انشغل تيمح بالمشهد ونسي الطعام .
هرول آخرون يطمعون في اللحاق بطبق
ذلك اليوم .كانت الفاصولياء وقطعة
الخبز""الكومير ""كانت سيدي المائدة. لا
محيد عنها ولا بديل لها. على المائدة ،لم
ينقطع الحديث عما دار بالأمس وعما
يشهده مبنى السوق اليوم .انتشر الطلاب
بعد الغذاء في حوش الدار .لا يعلو
موضوع على موضوع المسيرة الخضراء
.الكل يتمنى ان يشارك .سمع تيمح ذلك

حقا من أفواههم .رغم حداثة سنهم كانوا يرغبون في التطوع. حين حل المساء ،وهو ذاهب الى الثانوية ،بدت له من بعيد باب قيادة فجيج وقد تجمع بها خلق كبير من أهل المدينة .كان يلتفت إليهم مندهشا .فهو لم يشهد مثل ذلك الجمع أمام المكان من قبل .ظهر مبنى السوق عامرا .تراصت الصفوف فيه أفواجا أفواجا .نساء ورجالا، ومن الشباب أيضا. كل أولئك حلوا هناك ملبيين نداء الملك .دق جرس الدخول يُسمع من بعيد .أسرع تيمح ومن تخلف معه يجرون حتى لا تغلق في وجوههم باب الثانوية. "تدرب المتطوعون لثلاثة أيام متتالية .ثم توقف كل شيء فجأة .لأيام عديدة ،هدأ كل شيء في المدينة .لم تعد هناك جموع غفيرة على الباب الكبيرة لقيادة فجيج تنتظر ولا جموع في السوق. انصرف الناس الى حقولهم ومواشيهم وأعمالهم .من خلال مروره بالشارع العام ، لم تنقطع الموسيقى والأغاني الوطنية يبثها مذياع دكان ""باحي"". من حين لآخر ،وخصوصا عند المساء بعد العصر ،يفتح صاحب الدكان الآلة المسجلة -ربما كانت من نوع ""تورن ديسك ""ذات

الاسطوانات الكبيرة -يفتحها مطلقا العنان لأغاني عربية .أغنيات أم كلثوم وفريد الاطرش وفايزة أحمد وعبد الحليم وغيرهم ممن كانت حناجرهم تصدح للحب أو للحرب أو للقومية العربية .كان تيمح يتوقف قبالة ذلك الدكان ، يجلس على قارعة الطريق ، يرخي أذنيه ،يستمع مستمتعا بذلك الكشكول الفني الذي امتزجت فيه إيقاعات المغرب بأنغام الشرق العربي وأغانيه في سمفونية عذبة النوتات تمجد للوطن ولقضايا الامة العربية .لوحة كأن فنانا عبقريا رسمها على جدار المثالية في ذلك الجانب من الشارع .كان تيمح و قد استبد به الجوع، ينظر الى البضاعة داخل الدكان كأنها لآلئ تشع نورا من بعيد .تدغدغ معدته ، يتمنى لو يحظى منها بعلبة مربى التين ،أو علبة من سمك أو حتى قطعة من قطع البسكويت المصفوفة على الرف ولا مال بين يديه .اجتذبته أيضا- وهو يقاوم فراغ معدته والشمس تغادر المكان فاترة -صورة صاحب الدكان .كان جماله من نوع آخر .زانته السمرة والابتسامة وطول القامة .وزانته سماحته .رآه في وجه أحد الممثلين

بسينما فجيج في فيلم صيني أو ياباني من أفلام الكاراتيه .كان يتأمله، يتعجب من ذلك الشبه البين بينهما .وتمر الأيام على تلك الحال .لا يجد تيمح فرصة إلا زار ذلك المكان يسد جوعه بموسقى تغذي روحه فتنسيه بطنه.كان يجلس به سي ""مكاوي "أستاذ الرياضيات .لم يكن تيمح يعير لذلك اهتماما كثيرا .

شرعت الأغاني الوطنية تُبث من جديد بعد حين من تلك الأيام الساكنة؛ ينقلها أثير الإذاعة الوطنية عبر مذياع كبير بقيادة فجيج .تنقله الى الأسماع مكبرات صوت عملاقة علقت على جدار البناية وعلى بعض الأشجار القريبة .طفق الناس يتجمعون ثانية .نساء بالحياك البيض يزغردن في إباء. رجال بجلبابهم الصوفي يقفون منتظرين في شموخ .شيب وشباب عجت بهم الساحة تشرئب أعناقهم الى معرفة القادم من الأحداث .صفت السماء تماما إلا من نجوم ترسل ضوءها خافتا من الأعلى .تراقب معجبة .تهب نسائم باردة تقشعر لها الأبدان المتحمسة .بات تيمح يتنقل بين زوايا المكان، يجري تارة

وأخرى يركن الى سور قصير لحديقة ذات زهور على ذلك الشارع الطويل .شرعت طلائع الناقلات ،والشاحنات من نوع فورد ذات المقدمة الحمراء، وبيرلي ذات المقدمة الصفراء، تنتظم على طول الشارع الممتد الى الأبد . .الى هنالك ،الى مدن سليبة . غشي ظلام الليل كل شيء، ها هو تيمح -ولم يتجاوز ربيعة الخامس عشر- يتفحص الناقلات والشاحنات .تصيبه نشوة من هدير محركاتها وهي تستعد للتحرك .أحس في هديرها قوة وكبرياء.كانت يعلم أنها ستغادر الى أماكن بعيدة .ستقطع بالناس مسافات لا يعلمها إلا الله .ستحملهم بين ثنايا المنعرجات الوعرة ليعانقوا رملا من رمال الوطن . .يتأمل الذين يتأهبون للمسير الى أرض الصحراء فيدخلونها فاتحين .رسمت في ذهنه صورا لذلك الحدث في علاقته بأحداث من السيرة النبوية .طفق هؤلاء يركبون العربات المصطفة .كان رجال الشرطة والقوات المساعدة يضبطون النظام باقتدار .لم تتوقف الزغاريد .تعالت الأصوات تهتف بالنصر للملك، وبالحفظ والعودة الميمونة لجحافل الزاحفين تلبية لندائه ونداء

التحرير المقدس لأرض سلبها المعمر .بين ضلوع الساحة المزينة بالأعلام والرايات تكشفها الأضواء عالية مرفرفة و صور الملك المعلقة في كثير من الأرجاء ،من هناك ،انطلقت العربات بنظام وانتظام كما أمر الملك .كثر المودعون وانهمرت العيون تفيض دمعا ."""كنا نلوح بأيدينا للجميع ،"""يقول تيمح """كنا نهتف مودعين ،كنا نقفز فرحا ونصفر "ازداد صوت العربات تعاليا وهي تغادر .ها هي تختفي عند آخر نقطة تصلها العين ويسترها الظلام .ظهر الناس ينصرفون لا ينقطع حديثهم .ظل باب الداخلية مفتوحا ليلتها ينتظر عودة النزلاء وقد شاركوا في تلك الملحمة بحضورهم ،بهتافاتهم ،بوداعهم للمتطوعين .كان الطعام دسما ليلتها والمناسبة وطنية بامتياز. أكلوا جميعا حتى الشبع .. """""""""منذ اليوم الموالي لمغادرة المتطوعين لمدينة فجيج ،كان تيمح على موعد مع الجرائد الوطنية ،كان """بزة""" صاحب المكتبة بقصر اولاد سليمان على الشارع الكبير الذي يمتد من بوعرفة الى بشار ،كان يمده بما يطلب من جرائد على اختلاف لغات

تحريرها .كان تيمح الى جانب دروسه شغوفا بمعرفة ما يدور من أحداث سواء في المغرب أو في العالم حول حدث المسيرة .كانت الاذاعة الوطنية على أثير مذياع دكان ""باحي"" تيسر له معرفة ما يجري ويعزز لديه ما يقرأه على الصحف .لم تكن الصور على الصحف تشفي غليله في تبين الأحداث ولا تلفاز موجود في ذلك الزمان .ظلت المقالات الصحفية مصدر إلهام له.نوافذ مفتوحة على صور ذلك العالم الذي جمع بين بحار ومحيطات المغرب وبين جباله وهضابه والتلال .عالم يلتقي فيه السهل تمتد يداه الخضراء لتضم رمال الصحراء .كانت الصور تلون خياله بألوان الأهازيج والناس والعربات .كان يتابع خطابات الملك والندوات الصحفية التي كان يجريها مع وسائل الاعلام .كان معجبا بأسلوبه في الحديث ،بقدرته على الاقناع .كان يتعلم منها .تبني شخصيته وهو لا يدري .